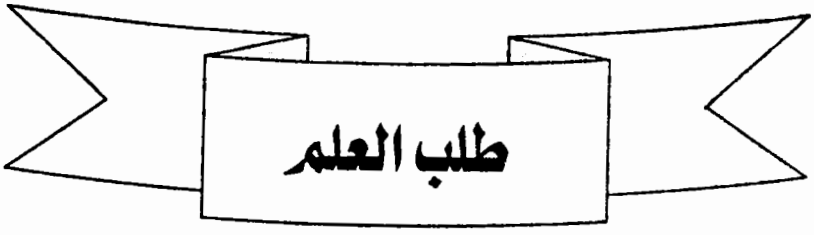

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الألبَابِ﴾

[الزمر: ٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله

وبعد..،

أخبر النبي ﷺ أنه يأتي زمان على الناس يفشو فيه الجهل ويقل فيه العلم، وتكثر تبعًا لذلك الفواحش والموبقات. وهذا الزمان ما نعيشه في هذه الأيام.

فقد قل العلم وفشا الجهل بين الناس حقيقة، فأصبحت تجد في شباب المسلمين من يجهل كيف يتطهر من الجنابة؟ بل فيهم من لا يعرف ما هي الجنابة؟ وفيهم أيضًا من لا يعرف كيفية الوضوء؟ فضلاً عن كيفية الصلاة.

وكثير من الشباب أو الرجال الكبار قد تحدثهم أنفسهم بالذهاب إلى الصلاة في المسجد ولكنهم يمتنعون خشية أن يضحك عليهم الناس إذا ما أخطئوا في أداء الصلاة أو ظهر جهلهم بها.

إنها آفة الآفات بلا شك، أن يجمع الناس بين الجهل بالدين والتكبر عن تعلمه؛ وإذا كان المسلم مطلوبًا منه أن يزكي نفسه، فإن هذه التزكية لا تكون حسب هوى كل شخص، أو دون اتباع لهدي النبي ﷺ.

فالمسلم مطالب أن يزكي نفسه على منهاج النبوة، وذلك بأن يتعلم العقيدة الصحيحة، ويتعلم العبادة الشرعية الصحيحة، ويتعلم المعاملات الشرعية الصحيحة، ويتعلم الأخلاق والآداب والسلوك مقتديًا في ذلك كله بالنبي ﷺ.

هذا بالنسبة لعموم المكلفين من المسلمين، فإذا أراد المسلم أن يتصدى للدعوة

إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أمر يجب على كل مسلم بحسب استطاعته كما أخبر بذلك النبي ﷺ إذا أراد أن يتصدى للدعوة أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر - فإنه لا يجوز له أن يمارس ذلك دون علم شرعي، أو قواعد شرعية ضابطة.

فالدعوة نفسها علم ولها أصول وقواعد، والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تكون إلا على بصيرة وعلم وبينة ومعرفة تامة بالحكم الشرعي لما يدعو إليه الداعي.

ولا يكفي أن يحسن الداعي بعض المواعظ والحكم ويحفظ بعض الآيات والأحاديث في الترغيب والترهيب والرقائق، ثم يتصدى لدعوة الناس وهو جاهل بأهم الأحكام التي لا ينبغي لمثله أن يجهلها، والتي ينبغي أن يعلمها ويُعلمها لعموم الناس: كمعرفة التوحيد والعقيدة الصحيحة، وأحكام الطهارة والصلاة والعبادات المفروضة، ومعرفة الكبائر والفرائض، ومعرفة أهم المعاملات التي يحتاج إليها المسلم في حياته اليومية من بيع وشراء ونكاح وطلاق وغير ذلك.

فالدعوة الشرعية المتبعة لمنهاج النبوة هي الدعوة المؤسسة على العلم والتزكية والبصيرة التامة بالأحكام الشرعية، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1].

فهذه هي سبيل محمد ﷺ وسبيل من اتبعه.

*الدعوة إلى الله على بصيرة:

إن أي دعوة لكي يكتب لها النجاح لابد أن تكون مؤسسة على قواعد صحيحة من العلم الشرعي المنضبط بنور الوحي والنبوة.

ولقد كان سر نجاح الدعوة المحمدية وبلوغها المشارق والمغارب والآفاق

---

(١) يوسف: ١٠٨.

أنها تأسست على العلم من أول يوم حينما لقي النبي ﷺ جبريل ولقنه هذا الدرس الأول متمثلاً في هذه الآيات التي تحمل الدعوة إلى العلم والتعلم.

وهذا هو الدرس الأول بعدما حُبب إلى النبي ﷺ الخلاء في غار حراء يتحنث ويتطهر ويتعبد لله تعالى ويزكي نفسه.

فالدرس الأول للداعي هو: تزكية نفسه، ثم الدرس الثاني بعد التزكية مباشرة هو: القراءة والتعلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

* بيان شرف العلم وفضل أهله:

۞ العلم طريقك إلى الجنة:

العلم سبيل من السبل الموصلة إلى الجنة، فيروي مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة"[2].

۞ العلم سبب لنضارة الوجه:

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "نضر الله امرءًا سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع"[3] ومتى كانت الوجوه ناضرة كانت حَرِيَّة أن تكون إلى ربها ناظرة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[4].

---

(١) العلق: ١-٥.

(٢) مسلم (٢٦٩٩)، سنن الترمذي رقم (٢٦٤٦)، أبوداود رقم (٣٦٤٣)، سنن ابن ماجه رقم (٢٢٥).

(٣) صحيح: ابن ماجه (٢٣٢).

(٤) القيامة: ٢٢، ٢٣.

❁ العلم ميراث محمد ﷺ، وميراث الأنبياء من قبله:

روى الطبراني في معجمه بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا؟ ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟! قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعًا، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر فيه شيئًا يقسم. فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحدًا؟ قالوا: بلى رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرءون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم! فذاك ميراث محمد ﷺ[(١)].

ويروي أبو داود في سننه بسنده عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[(٢)].

روى الشيخان في صحيحيهما بسنديهما عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين"[(٣)].

ويروي ابن ماجه في سننه بسنده عن أبي ذر-رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله ﷺ: "يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم بابًا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة"[(٤)].

❁ والآثار عن السلف في بيان فضل العلم وكريم منزلته أكثر من أن تحصر،

---

(١) نقلاً عن الترغيب والترهيب للمنذري ج١ ص(٦١)، الحديث الرابع والثلاثون وحسنه المنذري.

(٢) أبو داود رقم (٣٦٤١)، الترمذي رقم (٢٦٨٢)، ابن ماجه رقم (٢٢٣)، قال الحافظ ابن حجر: "له شواهد يتقوى بها"، الفتح ج١ ص(٢٥٢).

(٣) البخاري رقم(٧١)، مسلم ج٧ ص(١٢٨).

(٤) ابن ماجه رقم (٢١٩)، حسنه المنذري في الترغيب والترهيب.

وأشهر من أن تذكر، لكن نذكر منها طرفًا فما قل وكفى خير مما كثر وألهى(١):

١- عن علي - رضي الله عنه- قال: "كفى بالعلم شرفًا أن يدعيه من لا يحسنه إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذمًّا أن يتبرأ منه من هو فيه".

٢- عن معاذ -رضي الله عنه- قال: "تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة".

٣- عن وهب بن منبه قال: "يتشعب من العلم الشرف وإن كان صاحبه دنيئًا، والعز وإن كان مهينًا، والقرب وإن كان قصيًّا، والغنى وإن كان فقيرًا، والنبل وإن كان حقيرًا، والمهابة وإن كان وضيعًا، والسلامة وإن كان سفيهًا".

٤- قال الشافعي -رحمه الله- : "طلب العلم أفضل من صلاة النافلة".

٥- قال علي-رضي الله عنه-: "العالم أعظم أجرًا من الصائم القائم الغازي في سبيل الله".

***مكانة العلماء عند الله:**

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

روى مسلم في صحيحه بسنده أن نافع بن الحارث لقي عمر بعُسفان وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟! قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد

---

(١) مقدمة المجموع ص (١٤، ١٦، ١٧، ٢٢).

(٢) المجادلة: ١١.

(٣) الزمر: ٩.

قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين"[١].

ويروي الترمذي في سننه بسنده عن أبي أمامة الباهلي قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله ﷺ: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم"، ثم قال رسول الله ﷺ: "إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير"[٢].

ويروي أحمد في مسنده بسنده عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة"[٣].

***شهادة العلماء مقرونة بشهادة الله تعالى وشهادة الملائكة:**

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤].

*** العلماء هم الذين يخشون الله حق خشيته:**

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[٥].

---

(١) مسلم ج٦، ص٩٨، ابن ماجه رقم (٢١٨).

(٢) الترمذي رقم (٢٦٨٥)، حكى الحافظ بن حجر في مختصر الترغيب والترهيب حديث رقم(٢٦) تصحيح الترمذي للحديث.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٥٧) وحسن بعضهم إسناده؛ لأن فيه رشدين بن سعيد، وانظر: الترغيب والترهيب للمنذري ج١ ص(٥٩) حديث (٢٤).

(٤) آل عمران: ١٨.

(٥) فاطر: ٢٨.

*** هلاك الناس بذهاب العلماء وهلاكهم:**

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"[(١)].

وروى أحمد والطبراني من حديث أبي أمامة قال: لما كان في حجة الوداع قال النبي ﷺ: "خذوا العلم قبل أن يقبض أو يرفع" فقال أعرابي: كيف يرفع؟ فقال: "ألا إن ذهاب العلم ذهاب حملته" ثلاث مرات[(٢)].

❁ أقوال السلف في بيان مناقب العلماء كثيرة متواترة نشير إلى بعضها منبهين بها على غيرها[(٣)]:

١- قال أبو مسلم الخولاني: "مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها، وإذا خفيت عليهم تحيروا".

٢- عن الفضيل قال: "عالم عامل بعلمه يُدعى كبيرًا في ملكوت السموات".

٣- قال الشافعي: "إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء لله فليس لله ولي".

٤- وقال أيضًا: "ما أحد أورع لخالقه من الفقهاء".

٥- قال علي -رضي الله عنه-: "العالم أعظم أجرًا من الصائم القائم الغازي في سبيل الله".

٦- قال سفيان بن عيينة: "أرفع الناس عند الله تعالى منزلة من كان بين الله

---

(١) البخاري رقم (١٠٠)، مسلم ج١٦ ص(٢٢٣-٢٢٤)، سنن الترمذي رقم (٢٦٥٢)، سنن ابن ماجه رقم (٥٢).

(٢) نقلاً عن فتح الباري ج١ ص(٢٩٨).

(٣) مقدمة المجموع ص (١٤، ١٦، ١٧، ٢٢).

وعباده، وهم الرسل والعلماء".

٧- قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "من آذى فقيهًا فقد آذى رسول الله ﷺ، ومن آذى رسول الله ﷺ فقد آذى الله تعالى".

٨- قال الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر -رحمه الله-: "اعلم يا أخي - وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته - أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾".

٩- قال إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة: "أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد، فالعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأهل الجهاد جاهدوا على ما جاءت به الرسل".

١٠- قال سهل التستري: "من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء، فاعرفوا لهم ذلك"[1].

❁❁❁

(١) أفدنا في كثير من النصوص المجموعة في الرسالة من رسالة (العلم) للأخ الفاضل الشيخ/ أحمد سيد هوّى حفظه الله.